نابلس .. مكانتها وهيبتها في الماضي والحاضر والمستقبل

اعداد: أ. زهير الدبعي

كثيرة هي شكاوى النابلسيين من تراجع مكانة مدينتهم التي كان لها المكانة المؤثرة لا في فلسطين وحدها وإنما على صعيد وطن العرب.

وتتناول هذ الورقة مكانة نابلس في الماضي ومكانتها في الحاضر والمستقبل، وتفترض أن نابلس كانت في الماضي أقوى وأكثر هيبة وأكبر تأثيرا، وتحاول معرفة مصادر هذه القوة وروافدها، كما تحاول رصد العوامل التي أضعفت نابلس وكبحت جوانب من هيبتها. وتصل أخيرا الى وضع التوصيات ورسم خارطة طريق لنستعيد لنابلس مكانتها في إطار انتمائها الفلسطيني العربي وأفقها الإنساني.

مكانة نابلس في الماضي

لم تكن نابلس في أي من العصور بمكانة بغداد والقاهرة وإن كانت أقدم منهما، إلا أن لنابلس سمعتها ودورها في العديد من العواصم العربية.

ومن الضروري التأكيد بأن نابلس في المصادر التاريخية لم تكن تعني المدينة التي كان لها عدة بوابات تغلق بعد صلاة العشاء ، وإنما كانت تعني المدينة بحاراتها الست وريفها الذي كان يمتد من البحر إلى النهر ومن حدود لواء الجليل وحيفا شمالا، الى لواء القدس جنوبا ، بل كانت نابلس تمتد لتصل إلى حوران ومعان والكرك وقضاء البلقاء بما في ذلك مدينة السلط، وأن عدد القرى التابعة لنابلس في مطلع القرن التاسع عشر قد بلغت (238) قرية وبلدة. (1)

وكانت نابلس مركز لواء السامرة، وهو أحد ثمانية ألوية في فلسطين وفقا لقرار الاحتلال البريطاني في العام 1938. وبلغت مساحة لواء نابلس (292،3262) كم2 . يملك المشروع الصهيوني من مساحة اللواء 4.5% وأحتل في العام 1948، 1949 (294،753) كم2 أي أكبر من مجموع مساحة قضاء رام الله (5،686) كم2 أو ما يقرب من مجموع مساحتي قضائي طبرية ويافا (3،776)كم2 . (2)

وطالما أسرت نابلس بجمالها وقوتها كثيرا من الرحالة والزوار

" إن نابلس التي تتوسد بين جبلين عند مخرج واد خصب غني بالمياه بدت للأوروبيين في فترتنا هذه كالجوهرة بين مدن فلسطين ... مباني المدينة الفخمة ، والكثير منها كان يتألف من طابقين وحتى ثلاثة ، والمساجد ومآذنها ، والبازار المقبب البديع ، وعدد كبير من الآبار والينابيع التي تدفقت مياهها داخل المدينة وخارجها ، وكذلك الغدران التي تدير الطواحين ، والموقع وسط حقول الخضروات الممرعة ومزارع الفواكه والزيتون : كل هذه فتنت الأوروبيين : نابلس لا ينافسها منافس في فلسطين من حيث الجمال والترف " . (3)

واشتهرت نابلس بذراعها القوي وميلها المتكرر إلى التمرد والتحدي ، فقد جمع إبراهيم باشا من نابلس(5600) بندقية في العام 1834، ولم يكن هذا العدد الكبير من البنادق كل ما هو موجود فيها بدليل أن بعض أهالي القدس توجهوا بعد هذا التاريخ إلى نابلس واشتروا منها اسلحة. (4) واستمرت مكانة نابلس وهيبتها مرتفعة ومؤثرة حتى نهاية العقد الأول من احتلال حزيران 1967، وقد حذر موشي ديان وزير الدفاع الإسرائيلي أول حاكم عسكري للمدينة ، من نابلس وذلك حسب تعبيره (نابلس مطبخ سياسي كبير). (5)

وتشكل نابلس قلقا خاصا لدى قيادة الاحتلال فقد ذكر ديان نفسه نابلس مرتين خلال كلمة قصيرة ألقاها في 1967/8/3 م خلال إعادة دفن رفات عسكريين قتلوا عام 1948 في جبل الزيتون الذي يقع في القطاع الذي استولى عليه الاحتلال من مدينة القدس في 1967/6/7. (6)

واستمدت نابلس مكانتها وهيبتها في الماضي من خمسة روافد هي:

1. المعرفة والتعليم والثقافة.
2. الاقتصاد.
3. الخطاب الديني ومعايير التدين.
4. تصدر الطبقة الوسطى للقيادة .
5. ممارسة قادتها لروح القلعة المحاصرة .

المعرفة:

كان اهتمام نابلس بالمعرفة التي هي الثمرة الأولى للتعليم رافداً أساسياً من مكونات مكانتها وهيبتها. فقد ضمت الكتب القديمة والجديدة أسماء كثير من الفقهاء الذين ذاع صيتهم ليس على صعيد فلسطين فحسب وإنما على صعيد وطن العرب. وكان لبعضهم مكانة مرموقة لدى سلاطين الدولة العثمانية. ولا يتسع المقام هنا لذكرهم، فقد أشرت إلى أسماء بعضهم في مكان آخر في هذه الورقة. وكان في نابلس مدرسة فقهية في جامع العين الذي عرف فيما بعد بمسجد البيك، ومدرسة أخرى في الجامع الصلاحي الكبير، فضلاً عن مدارس أخرى، وعدد كبير من الكتاتيب. أما الذين تخرجوا في الأزهر، وفي مدارس دمشق والمسجد الأقصى المبارك، والمدرسة الأحمدية في عكا فعددهم كبير جداً.

وكان لقرار عدد من أهالي نابلس تأسيس مدرسة عام 1918 عرفت بمدرسة النجاح النابلسية، وتطورت لتصبح كلية ودارا للمعلمين، وجامعة النجاح الوطنية في العام 1977، ولقرار هذه الطليعة والطلائع الأخرى التي عملت على تطويرها في كل المراحل آثارٌ تربوية وتعليمية ووطنية عظيمة ليس على صعيد نابلس وتعزيز مكانتها وهيبتها فحسب، وإنما على صعيد فلسطين، بل وعلى صعيد وطن العرب، وكما كتب الدكتور وليد قمحاوي (1923 – 2005) عن نابلس وكلية النجاح:

" هل هي بلد السياسة التي كان لها في كل تحرك دورها المؤثر وصوتها المسموع، أم هي بلد العلم بمدارسها المتعددة منذ عشرات السنين وبكلية النجاح التي كان يؤمها الطلبة من أقصى المغرب العربي، ويتخرج طلبتها ليكونوا رواداً في أقصى المشرق العربي؟" (7)

ويؤكد الدباغ في موسوعته على المكانة المرموقة للبلاد النابلسية في ساحة الفعل المعرفي والثقافي.

" وينسب إلى البلاد النابلسية كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء والإداريين وغيره. ولا أغالي إذا قلت بأن كل قرية من قراه سواء كانت صغيرة أم كبيرة قد أنجبت عالماً او علماء ينسبون إليها. فعلماء آل قدامة والجعافرة وآل مفلح والخالديين والمرداويين... وغيرهم ممن ظهروا في العصور الماضية والحديثة كثيرون، وقد ذكرناهم في مواضعهم من هذا الكتاب. ويرجع الفضل في انتشار المذهب الحنبلي في مصر وغيرها لعلماء الديار النابلسية". (8)

وعزز المكانة المعرفية والثقافية لنابلس بعد العام 1948 وحتى العقد الأول من الاحتلال المدرسة الصلاحية وكلية النجاح الوطنية. ويقول علي خليل حمد عن مكانة نابلس والمدرسة الصلاحية في الفترة المشار إليها أعلاه:

" كانت المدرسة الصلاحية تحصد عدداً كبيراً من الأوائل والطلاب المتفوقين في كل عام، وكانت نابلس كأنها تقوم بمسؤولية تعليمية وطنية مركزها نابلس وكأنها تمثل المركز الحضاري في فلسطين مع القدس، حيث كانت يافا والناصرة تمثلان هذا المركز قبل العام 1948. ويمكنني القول بأن نابلس لبت حاجات كثيرة لتعليم الإناث في العديد من قرى فلسطين". (9)

" ويعود الفضل إلى حكمة شريف صبوح (1887 – 1936) المدير الأسبق للتربية والتعليم في نابلس في فتح مدارس للإناث في عشرات القرى." (10)

ومن الطبيعي أن تثمر النهضة التعليمية في نابلس جيلاً من الرؤوس في ساحات الفكر والترجمة والأدب على صعيد فلسطين ووطن العرب.

ذكر وديع فلسطين أحد عشر مثقفاً وصفهم بأنهم من أعاظم رجال العروبة، والرجال الكبار الذي نذروا أنفسهم لقضايا العرب، وكان من بينهم ثلاثة من نابلس، وهم : محمد عزة دروزة (1888-1984)، وعادل زعيتر (1897-1957)، ومحمد علي الطاهر (1886 – 1974) وذلك في سياق حديثه عن عجاج نويهض، وفي كتابه القيِم (وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره) كما تحدث في نفس عن ثلاثة مثقفين آخرين وهم: قدري طوقان، وأكرم زعيتر، وفدوى طوقان. وهذه شهادة كافية عن مكانة نابلس الثقافية ليس على صعيد فلسطين فحسب، وإنما على صعيد وطن العرب. (11)

وكثيرة هي الصور الجميلة التي ترسخ مكانة نابلس الثقافية وريادتها، فقد كان ثلاثة مثقفين من نابلس من أكثر الساسة قرباً من الملك فيصل بن الحسين الذي أسس حكومة عربية في دمشق، وهم: محمد عزه دروزة، وعوني عبد الهادي، وصالح الصمادي.

ومن الواضح أن نابلس انكمشت ثقافياً منذ حزيران 1967. وذلك نتيجة عدة عوامل أبرزها تراجع التعليم، رغم التوسع في المدارس، ورغم تأسيس الجامعات، فإن ضعف التعليم ترك ظلاله السوداء على عدد القراء، ونشر الكتب، وحيوية المكتبات، وعدد المثقفين ونوعيتهم.

ومن المعروف أن نابلس كانت تعرف بـ (عش العلماء) إشارة إلى عدد خريجي الجامع الأزهر، وغيره من مؤسسات التعليم، ومن بينها مدرسة الجامع الصلاحي الكبير، ومدرسة جامع العين (البيك). وكذلك مبادرة عدد من الأهالي لتأسيس مدرسة النجاح النابلسية عام 1918 التي جرى تطويرها وأصبحت داراً للمعلمين، وجامعة في العام 1977.

وبادر الشيخ أحمد البسطامي إلى تشجيع عدد من رجالات نابلس لتغطية مصاريف بعثة تعليمية إلى الأزهر في القاهرة. وتخرج الطلبة وأصبح بعضهم رؤوساً في الكثير من الساحات. أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ عبد الحميد السائح، الشيخ محمد البسطامي، الشيخ محمد رامز مسمار.

وبادر الدكتور قدري طوقان (1910-1971)، وآخرون إلى تأسيس جمعية لمؤازرة طلبة العلم وتشجيع بناء مدارس جديدة .

وحدثني الزميل إبراهيم قراعين مدير المكتب الفلسطيني للخدمات الصحفية، الذي درس في الجامعة الأردنية، وهو من أهالي القدس وسكانها، عن أن أمنيته كانت أن يصبح معلماً في نابلس، لما كانت تتمتع به نابلس من مكانة متميزة في ميدان التعليم .

الاقتصاد :

شكل اقتصاد نابلس القوي رافداً أساسياً من روافد مكانتها وهيبتها، فالمدن والامم لا تحقق مكانة وهيبة بدون قدرتها على إعالة نفسها وتوفير احتياجاتها الأساسية، فإذا كان (الفقر الاختياري) للزهاد والقديسين سبباً من أسباب مكانتهم وتخليد ذكراهم في ذاكرة الأجيال ، فإن فقر الوطن يغرس أنيابه في قدرة الوطن والأمة، كما أن غناه يضفي هيبة وجمالاً وقوة حتى ان الله تبارك وتعالى قد ندد بالفقر، وأشاد باليسر ، قال تعالى :

"الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم" (البقرة، آية: 268) . " ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى " (الضحى، آية:8-5) .

"فقد كانت نابلس خلال القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر، المركز الرئيسي لتجارة فلسطين وصناعتها". (12)

وأورد دوماني في الكتاب نفسه، "في صفحة 248".

"برزت نابلس طوال القرن الثامن عشر، بروز مركز فلسطين التجاري والصناعي، وغدا ريفها أكبر منتج في سورية الكبرى كلها، لأهم سلعة تصدر إلى أوروبا : القطن، وقد أمد توسع الزراعة التجارية جماعة تجار نابلس، القوية أصلاً، بالنفوذ، إذ أتاح لها الفرص الكثيرة للاستثمار في إنتاج السلع الزراعية، وتصنيعها والاتجار بها" .

ويقول مؤرخ آخر مؤكداً القدم الراسخة لنابلس على صعيد فلسطين ووطن العرب وأقطار أخرى بعيدة:

"ساعد موقع نابلس المتوسط بين مدن فلسطين على أن تكون محط رجال القوافل القادمة من الشرق للغرب والمتجهة من الجنوب إلى الشام...

امتدت تجارة نابلس إلى أماكن متعددة، فوصلت إلى مصر والشام، والحجاز، وجبل لبنان، كما تاجرت نابلس مع القدس، وعجلون، ومعان، والسلط، وتعدت تجارتها إلى جزر البحر المتوسط، وسواحل البحر الأحمر، والخليج العربي، وشمال افريقيا، وآسيا الصغرى، ووصلت إلى فرنسا" ((13)

ولم تقتصر مكانة نابلس الاقتصادية على الانتاج الزراعي الغني والمتنوع، وإنما تعدت ذلك إلى تصنيع عدد من هذه المنتجات، أبرزها: القطن والزيتون.

أما القطن فكان يصدر إلى فرنسا " (14)

" وإلى جانب وظيفة نابلس كسوق محلية ومركز تجاري إقليمي كانت المدينة تتميز بأهم إنتاج حرفي في فلسطين موجه نحو السوق الإقليمية . وقد اشتهر قطن نابلس بأنه أجود أنواع القطن في سوريا ... ولقي القطن النابلسي بسبب نوعيته ، وكذلك المنسوجات القطنية والصوفية والمصنوعة من شعر الجمال وأشغال

كلف الملابس أيضا نفاقا في الأسواق الفلسطينية وأسواق شرق الأردن ووسط سوريا ... وإلى جانب الحاكة والصباغين نذكر الحذائين وصاغة الذهب والفضة الذين كانوا يبيعون بضاعتهم في هذا الجانب وذاك لنهر الأردن ، كما نذكر منتجي زيت الزيتون الذين حظي بالتقدير في كل مكان نظرا لنوعيته " (15)

أما شجرة الزيتون المباركة التي ذكرها الله في كتابه العزيز وأقسم بها في قوله تعالى :

"الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم" (النور: 35) .

" والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين" (التين: آية: 3-1) شجرة الزيتون المباركة التي زرعها أجدادنا، بإيمان وصبر وثقة وهمة عالية، قبل ميلاد سيدنا المسيح عليه السلام بقرون طويلة.

هذه الشجرة التي أضحت رمزاً لصمود شعبنا وأمتنا وانغراسه بالأرض، وقدرته على الانتاج والعطاء، كان زيت هذه الشجرة المباركة يصنع منه الصابون قبل اكتشاف امريكا بمئات السنين، وقبل أن يعرف بعض الأوروبيين الصابون أو طريقة استخدامه.

أول وصف لصناعة الصابون في نابلس وهو ما ذكر سنة (1327م) على لسان محمد بن أبي طالب الانصاري الذي قال عن نابلس: " نابلس مدينة خصبة نزهة بين جبلين متسعة ما بينهما ذات مياه جارية وحمامات طيبة وجامع تقام فيه الصلوات وتكثر قراءة القرآن فيه ليلاً ونهاراً والأشغال فيه كثيرة، وهي كأنها قصر في بستان. وقد خصها الله تبارك وتعالى بالشجرة المباركة وهي الزيتون ويحمل زيتها إلى الديار المصرية والشامية والحجاز والبراري مع العربان ويحمل إلى جامع بني أمية منه في كل سنة ألف قنطار بالدمشقي" (16).

ومن المعروف أن انشاء مصنع لإنتاج الصابون او تشغيله كانت عملية مكلفة جداً, فضلاً عن ان معظم أصحاب المصابن لا تقتصر أعمالهم على انتاج الصابون وإنما على بعض أعمال البنوك من ودائع وقروض. فقد جرى تقدير قيمة المصبنة في عام 1912 بثمانية آلاف قرش. أما في العام 1936 فقد قدرت بـ (9500) جنية فلسطيني . وكان في نابلس في الثلاثينيات من القرن الماضي (30) مصبنة". (17)

ورغم أن صناعة الصابون في الماضي لم تكن مقتصرة على نابلس إلا أن نابلس سطرت تفوقها على غيرها من المدن الفلسطينية وبلاد الشام لدرجة أن انتاج (المصبنة اليوسفية) تفوق بنسبة 20% على مجموع ما انتج في دمشق، وكذلك أن نابلس كانت تملك في ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر 75% من عدد المصابن في فلسطين . (18)

الخطاب الديني ومعايير التدين :

لعب الإسلام دوراً محورياً وعميقاً وشاملاً في حياة ومكانة العرب ، وغيرهم من الأمم، وكذلك على صعيد البشرية كلها. لكن هذا الدور يتفاوت تفاوتاً كبيراً من عصر إلى عصر، ومن قطر إلى اخر تبعا للخطاب الديني ومعايير التدين التي هي جهد بشري يتعرض لما يتعرض له البشر من قوة وضعف، وعمق وسطحية، وسذاجة وحكمة.

وكثيرة هي الشواهد من مؤلفات الفقهاء التي تؤكد ضرورة التمييز بين إرادة الخالق من دين وبين ما فهمه المخلوق من هذا الدين، وأقتطف منها من العلامة مصطفى الزرقا وهو أستاذ كوكبة كبيرة من أبرز أساتذة كليات الشريعة في بلاد الشام :

" من المهم جدا التمييز بين قولنا: الشريعة الإسلامية، وقولنا : الفقه الإسلامي، فالشريعة هي نصوص القران الموحى به من الله تعالى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. والسنة النبوية، هي أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله التي هي شرح وتفصيل لما أجمله القران، وتطبيق عملي لأوامره ونواهيه وإباحاته، باعتبار أن كل ما يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متصلا بتفسير الشريعة وتطبيقها ، ليس من عند نفسه ومن رأيه الشخصي، وإنما هو بوحي من الله تعالى إليه.

أما الفقه فهو ما يفهمه العلماء من نصوص الشريعة وما يستنبطونه من تلك النصوص، ويقررونه ويؤصِّلونه، وما يقعِّدونه من القواعد المستمدة من دلالات النصوص.

ولا يجوز الخلط وعدم التمييز بين مفهوم الشريعة الإسلامية، ومفهوم الفقه الإسلامي، لأن الشريعة معصومة، وهي العقيدة الإسلامية صواب وخير كلها تهدي الحياة الإنسانية الى الطريق السليم المستقيم.

اما الفقه فهو من عمل الفقهاء في سبيل فهم الشريعة وتطبيق نصوصها وفقا لغرض الشارح والقواعد الأصولية في استنباط الأحكام منها. وفي هذا يختلف فهم فقيه عن فهم فقيه اخر. وفهم كل واحد مهما علا قدرُه ، يحتمل الخطأ والصواب لأنه غير معصوم.

وليس معنى ذلك أنه لا قيمة له، بل له قيمة عظيمة وتقدير كبير، لكن المقصود انه ليس له القدسية التي للشريعة نفسها المتمثلة بنصوصها من الكتاب والسنة الثابتة.

فالفقه وهو فهم الفقيه ورأيه، ولو كان مبنيا على النص الشرعي، هو قابل للمناقشة والتصويب والتخطئة، ولكن التخطئة تنصرف الى فهم الفقيه لا الى تخطئة النص الشرعي. ومن ثم اختلفت اراء الفقهاء، ورد بعضهم على بعض، وخطأ بعضهم بعضا". (19)

وكان لسلسلة الهزائم التي أصابت الوطن والأمة وما أفرزته من أزمات داخلية متنوعة تأثيرها السلبي على الخطاب الديني وبخاصة بعد هزيمة حزيران 1967، واحتلال البلدة القديمة للقدس والمسجد الأقصى المبارك ، مما جعل الناس يدركون انهم أمام هزيمة الحرب وليس مجرد هزيمة في جولة أو معركة من المعارك، فجرى ترويج وتسويق خطاب ديني ومعايير تدين لا ترتقي إلى عظمة الإسلام ولا تعبر عما فيه من طاقات هائلة وقدرة على انتشال الأمة إلى افاق القوة والعزة والانتصار، وهذا ما عبر عنه العلامة الزرقا الذي نقتطف من أقواله:

" فالشرع بوجه عام في أمة من الأمم ليس إلا صورة صحيحة لحياة اجتماعية واقعية. وهدفه العام فيها إقامة العدل وحفظ التوازن في الحقوق والالتزامات، وصيانة حقوق الناس الفردية، ومصالح المجتمع بقواعد قانونية. وهذه القواعد تكون وقتية غير صالحة للخلود إذا كانت تعبر عن أوضاع خاصة عرفية إقليمية، وتكون صالحة للخلود إذا كانت تعبر عن مفاهيم وحقائق مسلمة ثابتة علمية، كقاعدة منع الضرر وإيجاب التعويض عنه، وقاعدة عدم سريان حكم العقد على غير عاقديه، وعدم تأثيره في حقوق الغير.

فالتشريع دائما في الأمة هو كالأدب فهما كلاهما يعطي صورة عن واقع اجتماعي واقتصادي في الأمة، ويعبر عما وصلت إليه الحياة فيها من التطور والإدراك الاجتماعي. وبقدر ما فيه من قواعد ذات مفاهيم

تشريعية عامة عالمية الاعتبار، وبقدر ما فيه من توجيه للأمة نحو الإصلاح المستمر، تكون درجة رقي في ذلك الشرع، وصلاحية مبادئه للخلود" . (20)

ولأن الخطاب الديني ومعايير التدين هي المصدر الأساسي الملهم للفكر والتربية والقيم والثقافة فإنهما قد ينتجا أوضاعا أمنية واقتصادية وسياسية واجتماعية تصل إلى درجة التناقض وليس مجرد التفاوت ، لأن أنماطا من الخطاب الديني ومعايير التدين لا تختلف عن بعضها اختلافا في المقادير والمسافات وإنما قد تصل الى درجة التناقض والتضاد. وأمامنا مثلان صارخان واضحان:

الأول: مكانة العرب والمسلمين في القرون السبعة التي تلت الرسالة والفتوحات، فقد كانوا الأقوى والأرقى معرفيا واقتصاديا وتمدنا. وجاء على غلاف كتاب

(ما لا يعلمه الناس من الأوائل العربية) تألف " أبو رزق المصري"

نقل الكاردينال تشيمنز عن البابا انوسونت الرابع قال عن العرب :

"نحن فقراء الى ما لديهم من علم وثقافة وفن " وذلك في القرن الثالث عشر للميلاد .

مكانة اقطار العرب والمسلمين حاليا اصبحت نقيض ما كان عليه :

الثاني : مكانة وهيبة وقوة ماليزيا مقارنة مع افغانستان نحن جميعا و بدون ادنى تحريف او تغيير ، وكذلك الماليزيون والافغان فلهم كتاب واحد ، ورسول واحد ، وقبله واحدة ، وأذان واحد ، ويصومون في رمضان ، ومع ذلك نجد ما يحظى به الماليزيون من الاستقرار والتقدم والتمسك بدينهم ، وفي نفس الوقت نجد ما يعانيه الافغان من فوضى وعنف وتخلف .

كلمة السر ليست في الدين وانما في الخطاب الديني ومعاير التدين التي نحتاج الى مراجعتها باستمرار ، فإذا كان بعض الصحابة رضى الله عنهم بحاجة إلى إصلاح معايير تدينهم مع صحبتهم للرسول صلى الله عليه وسلم فان حاجتنا في هذا العصر الذي نعاني من دور ظلامي لقوى الاستكبار ليس في وطننا فحسب وانما ايضا في التلاعب في الخطاب الديني ومعايير الدين . وهذا واضح منذ حملة نابليون الى مصر في العام 1798م ، ومنذ الصراع على اليمن بعد الثورة في العام 1962. وكذلك منذ سقوطنا في حفرة حفرتها دوائر الموت الامريكية لنا في العام 1979 تحت شعار " الجهاد في سبيل الله في أفغانستان " .

وروى البخاريُّ ومسلمٌ عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا ، فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا . وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ . وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا . فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : (أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَاللَّهِ ، إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي).

ومما يروى عن حرصه عليه الصلاة والسلام على إصلاح معايير تدين (بعض الصحابة)، ان عبد الله بن عمرو بن العاص قد تزوج ، وكان من الشباب المعروفين بالصلاح والتقوى والانقطاع الى الصيام والقيام ، فذهب ابوه عمرو يسأل زوجه عن حاله معها فقالت في أدب : نعم الرجل عبد الله لم يطأ لنا فراشا منذ جئناك . فشكا عمرو ابنه الى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وها هو عبد الله يروى لنا القصة بنفسه كما أوردها الإمام مسلم في صحيحه :

قال : كنت أصوم الدهر ، أقرأ القرآن كل ليلة ، فلما ذكرت للنبي صلى الله علية وسلم .
قال : ألم اخبر انك تصوم النهار وتقرأ القرآن كل ليلة ؟
قلت : يا نبي الله إني اطيق أكثر من ذلك .
قال : فان لزوجك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، ولجسدك عليك حقاً .
قال : فصم صوم داوود نبي الله ، فانه كان اعبد الناس .
قلت : يا بني الله : وما صوم داوود ؟
قال : كان يصوم يوماً ويفطر يوماً .
قلت يا رسول الله : اني اطيق افضل من ذلك .
قال : اقرأ القرآن في كل شهر .
قلت يا رسول الله : اني اطيق افضل من ذلك .
قال فاقرأه في كل عشرين .
قلت يا نبي الله : اني اطيق افضل من ذلك .
قال : فاقرأه في كل عشر .
قلت يا نبي الله : إني أطيق أفضل من ذلك .
قال: فاقرأه في كل سبع، ولا تزد على ذلك فان لزوجك عليك حقا ولزورك عليك حقا ولجسدك عليك حقا.(رواه مسلم) .

ومن المعروف ان الصحابة رضى الله عنهم كانت جهودهم لإصلاح الخطاب الديني ومعاير التدين .
وبخاصة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكذلك جهود المصلحين في كل العصور بما في ذلك العصر الحديث والمعاصر .

واشتهرت نابلس بأنها (عش العلماء) لما أنجبت من علماء الدين الذين ذاع صيت عدد كبير منهم في كثير من الاقطار العربية .

وجاء في مقدمة كتاب (نابلس عش العلماء وموطن الأصفياء) للدكتور رأفت محمد رائف المصري :
” لم اكن أتصور قبل البحث ما وقعت عليه أثناءه ، إذ ما كنت لأتصور هذه الاهمية الفريدة من نوعها - مثلي في ذلك مثل كثير من ابنائها – الا أنني كنت قد علمت وهالني – ان مدينة نابلس – من غير مبالغة ولا محاباة – كانت من اعظم مدن الاسلام ، ومحطة علمية بارزة ، يشد اليها الطلبة رحالهم ، ليجدوا في رحابها الوان العلوم ، وانواع الفضائل ، ومنها يصدر الكثير من ابنائها – علماء ومتعلمين – ليقفوا على مواقع في صدر الامة مهمة ، ويتصدروا القيادة او التعليم او الامامة او الافتاء او القضاء هنا او هناك في مدن الاسلام الكبرى ، كمكة او القاهرة او دمشق .(21)

وما اورده المؤلف صحيح وتسنده كثير من المعلومات الموثقة في صفحات الكتاب ال(268) . ومن المعلومات ذاتها التي اوردها المؤلف في كتابه ، وكذلك كثير من المصادر الأخرى ، كان الأجدر بالمؤلف أن يستخدم كلمة (نابلس / لتشمل اللواء ، لان كثيراً من فحول العلماء النابلسيين كانوا من ريف نابلس ، ومن الطبيعي ان ينسبوا الى نابلس ، واذكر بعض هؤلاء العلماء :

1. الامام موفق الدين ابن قدامة (620-541) وهو من جماعين .
2. علي بن سليمان المرداوي (817-858) هـ .
3. موسى بن احمد الحجاوي (895-968) هـ .
4. احمد بن محمد الباقاني (من باقة الحطب) ت (1195) هـ.
5. احمد العقرباوي ت (1180) هـ.
6. عبد الحليم بن عبد الله ت (1185) وهو من شويكه
7. الشيخ الامام عبد الغني بن اسماعيل النابلسي (1050-1143) هـ وهو من جماعين .
8. عبد الغني بن محي الدين الحنفي النابلسي ت (1147) هـ وهو من جماعين .
9. صنع الله المعروف بالديري ت (1139) هـ وهو من (الدير) قرية من قرى نابلس .
10. احمد بن عبد الدايم (575-668) هـ وهو من الفندق .

وبداهة فان نابلس المدينة كانت تزخر بأعداد كبيرة من العلماء بعضهم كان من العلماء المميزين ذوي المكانة المرموقة في فلسطين ، وربما على مستوى بلاد الشام ووطن العرب وبلاد المسلمين .

واورد المؤرخ الفقيه المناضل محمد عزة دروزة في الكتاب الاول / المجلد الاول عدداً كثيراً من المشايخ الذين كانوا نخبة المجتمع ، وكان وجود عدد من المشايخ في العائلة دليل على مكانتها . وبعض هؤلاء المشايخ حظوا بتعليم مرتفع ، وبعضهم اصبح قاضياً او مفتياً لنابلس وخارجها ، كما ان بعضهم ينتسب الى صحابة رسول الله صلى الله علية وسلم ، وكان بعض هذه العائلات المنتسبة في نقابة الأشراف تتمتع بعدة امتيازات تضعهم في مكانه اعلى من غيرهم . وكان في استنبول نقيب نقباء الاشراف .

وذكر دروزة مشايخ من عائلات لم يكونوا على نفس الدرجة من العلم ومن النفوذ ، كما بعضهم عمل في التجارة والتعليم ومنهم من عائلات :

ابو الهدى ، الخماش ، هاشم ، صوفان ، الصمادي ، البسطامي ، الحنبلي ، فيضي ، عرفات ، التميمي ، تفاحة ، الشرابي ، فتيان ، حنون ، زيد الكيلاني ، غزاوي (عبده)، سوار الشيخ صالح ، المر، فاش، الخاروف ،الطاهر، العثماني، صلاح الباقاني ، زعيتر ، الداري ، العبوة ، الحجاوي، الخفش ،البيطار ، عبد المجيد ، كنعان ، الادريسي ، عرموش ، مسمار ، النابلسي ، رزق المصري ، عنبتاوي ، الكخن ، دروزة ، طوقان .

من الضروري التأكيد على أن دروزة ميز بين كبار العلماء وأهل النفوذ ، وغيرهم ممن هم اقل علماً واقل مكانة ونفوذاً .

ويلاحظ ان المشايخ في القرن التاسع عشر مطلع القرن العشرين كان معظمهم من العائلات الميسورة أو عائلات الأشراف التي تنسب الى سبطي الرسول صلى الله عليه وسلم وغيرهما من الصحابة .

وأعتقد أن ذلك كان له الأثر الواضح على طبيعة الدور ومعنى الدعوة وأولوياتها ، حيث اعتمدت الدعوة في الماضي على (التواصي بالحق والتواصي بالصبر) وليس الوصاية على تفكير الناس وعلى سلوكهم مما أدى إلى السقوط في مهاوي العنف ومحاولات إكراه المواطنين على خطاب ديني معين وعلى فرض معايير تدين بعينها .

ونابلس مدينة محافظة معروفة بتدين أهلها ، وهذا ما دفع الأمير شكيب أرسلان لنصيحة الحاج عبد السلام بنونة في تطوان في المملكة المغربية لإرسال أولاده ، وغيرهم ، للدراسة في نابلس .

وقد عبر عن مغزى اختيار نابلس لتعليم ابنائهم الطالب عبد السلام ابن جلون خلال حفل وداع الطلاب المغاربة الذين درسوا في كليه النجاح الوطنية بتاريخ 1931/6/29:

"إن آباءنا أيها السادة لم يقدموا على إرسالنا إلى الأقطار الشرقية إلا بعد أن دققوا في البحث عن المدارس الإسلامية المطهرة من مبادئ الإلحاد والفساد، فوقع اختيارهم على معهدكم الشريف، وما ذلك إلا لما اشتهرتم به من الوطنية الصادقة، والإيمان الثابت، والأخلاق السامية وتمسككم بدينكم الحنيف ذلك التمسك الذي يجعلكم سادة البلاد الشرقية ونبراس الإخلاص والوطنية في قلب الجزيرة" . (22)

وتشكل هذه الكلمة دليلاً إضافياً على اختلاف الخطاب الإسلامي ومعايير التدين بين الماضي والحاضر. لأن الخطاب الديني ومعايير التدين كانت في الماضي أقرب إلى الخدمة والتوعية والتنوير والنصيحة والدعوة بالقدوة الحسنة والمثال الطيب، بينما انتشر خطاب إسلامي خلال العقود الأربعة الماضية أقرب إلى الفعل الاحتجاجي الناقم ، فقد كان الخطاب الإسلامي ومعايير التدين في الماضي كالينبوع لكل الناس بما فيهم الأقل تديناً ، لأن الرحمة هي جوهر الدين وليس كشركة احتكارية تتحدى وتناور وتداور، فالناس بكل أطيافهم وتياراتهم شركاء في الوطن بكل مقدراته وثرواته، وأعلاها وأغلاها الدين العابر للأوطان بنزعته الإنسانية ورسالته العالمية.

هناك فروقات جدية بين مسؤوليات الدعوة وتكتيكات الدعاية، وبين واجب التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وبين ادعاء حق الوصاية على فكر الآخرين لدرجة قد تصل إلى أن ينصب بعضنا نفسه وصيا على غيره لدرجة استمراء وشرعنة العنف ، مرة ضد مسرحية، ومعرض كتب، وجمعية خيرية، وحرم جامعي، وحفل فني، ومئات أحداث العنف الأخرى التي غطت كثيرا من أقطار وطن العرب وبلاد المسلمين.

الطبقة الوسطى :

تلعب الطبقة الوسطى في أي مجتمع دوراً هاما في حفظ التوازن الاقتصادي والثقافي والسياسي، وبالتالي فإن قوتها في حقيقته قوة للمجتمع، كما أن ضعفها يفضي إلى ضعف المجتمع لأنه يمهد الطريق أمام الإفراط والتفريط، وبالتالي اللاعقلانية، وما تفرزه من بيئة منتجة للأزمات المختلفة.

وكانت الطبقة المتوسطة في نابلس حتى العقد الأول من الاحتلال لها دورها القيادي المؤثر وأداؤها الذي أثمر مصلحة لنابلس ولكل الوطن.

ويعطي مجلس بلدي نابلس في تلك الفترة تعبيراً واضحاً عن هذه الطبقة، كما يُعطي دور القيادة الأهلية المساندة للبلدية والمشاركة لها في قيادة المدينة والمحافظة، بل قيادة الضفة الغربية، وتأثيراً واضحاً على قيادة قطاع غزة.

وكان المجلس البلدي في حزيران 1967 يضمّ المرحومين التالية اسماؤهم:

حمدي كنعان رئيس البلدية، تاجر وصناعي.

معزوز المصري، نائب رئيس البلدية، تاجر وصناعي.

عادل أحمد الشكعة، تاجر.

حافظ داود طوقان، ملاك.

محمد أحمد العمد، معلم في كلية النجاح الوطنية وملاك.

حسن حلمي عبد الهادي، تاجر وملاك.
وليد عبد الرزاق استيتية، تاجر.
جمال عبد القادر الخياط، طبيب له عيادة.
صديق الاسمر، تاجر.
فوزي قادري، مقاول ، حسن الخطيب، تاجر.
أنيس ايراني، طبيب مدير صحة نابلس. والاخيران قام بتعيينهما وزير الداخلية.

ونعرف عدداً من أسماء القيادة الأهلية التي ساندت البلدية في تحمل مسؤولياتها التي تجاوزت المسؤوليات المعتادة للبلديات نتيجة انهيار المؤسسات الحكومية بفعل الاحتلال، ومن هؤلاء: على سبيل المثال لا الحصر:

قدري حافظ طوقان، تربوي وملاك.
حكمت طاهر المصري، زعيم سياسي وملاك.
وليد أحمد الشكعة، زعيم سياسي وملاك.
وليد محمد زكي قمحاوي، طبيب له عيادة ، ومفكر.
صلاح الدين محمد عنبتاوي، طبيب له عيادة وقيادي من الصف الأول في حركة القوميين العرب.
رشدي ديب شاهين، قيادي في الصف الأول في عصبة التحرر ثم في الحزب الشيوعي.
عندليب أحمد العمد، رئيسة جمعية الاتحاد النسائي العربي.
عادل إبراهيم غانم، ، عامل نقابي.

ويلاحظ أن الطبقة الوسطى قد تعرضت إلى سلسلة عمليات إضعاف وتهميش وحلت مكانها في قيادة البلد طبقتان:

الأولى: طبقة الموظفين.
الثانية: رأس المال العابر للحدود والمحيطات والقارات.

الطبقة الأولى: طبقة الموظفين:

وهي طبقة موجودة في كل المجتمعات ولها مكانتها، وهنا لا أعتقد أن طبقة الموظفين تقتصر على الموظفين في القطاع الحكومي، أو القطاع الأهلي، أو القطاع الخاص فقط، وإنما كل من يعتمد في دخله ومعيشته على المال العام بغض النظر عن تصنيفات وتبريرات متنوعة، وتحتكر طبقة الموظفين قيادة البلاد إلى حد كبير جداً، ويؤكد ذلك:

معظم أعضاء المجلس التشريعي الفلسطيني الأول 1996، والثاني 2006 غالبتهم من الموظفين أعضاء حركتي فتح وحماس، وكذلك اعضاء الفصائل الأخرى.

المبعدون من حركتي حماس والجهاد الإسلامي إلى مرج الزهور في تاريخ 17\12\1992 ، والبالغ عددهم 416 قياديا ، ومعظمهم من الموظفين .

اعضاء تنظيم حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح، إقليم نابلس الذين انتخبوا في العام 2000 وعددهم (25) ناشطاً، حيث بلغ عدد الموظفين منهم (24) موظفاً، أي بنسبة 96% .

الطبقة الثانية: طبقة رأس المال العابر للحدود والمحيطات والقارات:

وهذه طبقة لم تكن معروفة بين الفلسطينيين داخل الوطن حتى العقد الأول من الاحتلال، وإن كان من الطبيعي أن الطبقة الوسطى تشكلت من عدة شرائح، عليا ووسطى ودنيا، إلا أن الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة لم تدخل إلى نادي الثراء الفاحش ورأس المال العابر للحدود.

ولعبت غالبية هذه الطبقة الجديدة (طبقة رأس المال العابر للقارات) دوراً مؤازرا ومدافعاً وملمعاً للشريحة العليا لطبقة الموظفين ، وتربط الشريحة العليا من الموظفين مع هذه الطبقة مصالح أساسية جعلت بعضهم تجاراً ومستثمرين في قطاعات متنوعة، وهم كغيرهم من طبقة رأس مال العابر للقارات لم يستثمروا في قطاع الزراعة والإنتاج الغذائي، باستثناء نسبة ضئيلة جداً، ومتواضعة، وهذا موقف سلبي في وطن يستهدف الاحتلال أرضه في كل يوم، لأن الزراعة هي الوسيلة العملية والفعّالة لحماية الأرض. وربما كان من الضروري أن تلزم وزارة الاقتصاد المستثمرين الفلسطينيين على استثمار حد أدنى من استثماراتهم في قطاعي الزراعة والتعليم، فاليابان البلد الصناعي الدائن الأكبر على مستوى العالم حرصت حكومته على انتاج الغذاء وبخاصة الغذاءين الرئيسيين لدى اليابانيين وهما: السمك، والأرز.

لكن أكثرية كبار المستثمرين فضلوا الاستثمار في قطاعات تحقق الربح المرتفع والسريع، ولم يخصصوا لو نسبة ضئيلة من رأسمالهم في الاستثمار في قطاعي الزراعة والتعليم، وهما قطاعان ضروريان ولهما مردود استراتيجي على عافية الشعب الفلسطيني وعلى قوته ومستقبله وقدرته على حماية وجوده داخل الوطن كمقدمة لا بد منها لانتزاع حقوقه في الكرامة والحرية والعدل والتنمية والسلام على أرض وطنه.

" تستهدف (التنمية التحررية المرتكزة على الناس) المجتمع بأسره من أجل تقوية وتعزيز الموارد المحلية للمجتمع، من خلال التركيز بشكل أساسي على الإنتاج المحلي بدلاً من الاستهلاك واعطائه الأولوية على غيره. وهي بذلك تقود المجتمع إلى الاعتماد على الذات وإلى حماية الموارد المحلية والبشرية وزيادتها إلى أقصى الحدود الممكنة.

بهذا المعنى، تهدف التنمية التحررية المرتكزة على الناس إلى تحرير عقول الناس وأجسادهم من الظلم الخارجي والسيطرة والهيمنة، ومن القمع الداخلي والإساءة والاستغلال والفساد والانحراف ومن إمكانية النفاذ إلى مصادر القوة بالاعتماد على الامتيازات وبطرق ملتوية " . (23)

يلاحظ أن كثيراً من أهلنا يتجاهلون التغيرات الكثيرة التي جرت في نابلس خلال العقود الخمسة الماضية والتي كان لها تأثيرات واضحة على القوى الفاعلة في نابلس.

وأذكر هنا عدداً من هذه التغيرات:

1. توسعت حدود بلدية نابلس في العام 1963 لتضم قرى وأحواضها، ثم توسعت مرة أخرى في العام 1987 لتضم عدداً آخر من القرى وأحواضها مما رفد مدينة نابلس بأعداد كبيرة من المواطنين. ويلمس بوضوح حضور هؤلاء المواطنين في جميع القوائم لانتخابات بلدية نابلس ونتائجها التي أجريت في العام 2005. كما يلمس أيضاً هذا الحضور في جميع القوائم لانتخابات غرفة تجارة وصناعة نابلس ونتائجها التي أجريت في العام 2011.

ولعل الدور الفاعل والواضح لأهالي بلدة حوارة في قطاع الصاغة في نابلس يؤكد ما ذهبنا إليه من التغيرات الايجابية التي رفدت المدينة بقوى بشرية واقتصادية خلال العقود الأربعة الماضية . فقد بلغ عدد محلات

الصياغة في نابلس التي يملكها مواطنون من حوارة 18 محلا من أصل 70 محل ومعمل صياغة ، وهذا يعني أن النسبة قد تجاوزت 25% ، ويؤكد خبراء أن حجم وفعالية محلات الصياغة التي يملكها مواطنون من حوارة تتجاوز عددها . (24)

وتفيد سجلات بلدية نابلس أن نسبة أحواض الحدود الحالية لمدينة نابلس التي كانت تابعة للقرى المحيطة والتي ضمت إلى المدينة في العام 1963، 1987 تصل إلى أكثر من ثلثي مساحة المدينة أي نسبة (19) من (27). ومن الطبيعي أن ترتفع أسعار هذه الأراضي ارتفاعاً صاروخياً ، مما أدى إلى إثراء نسبة غير قليلة من أهالي هذه القرى، وكذلك عدد من تجار الأراضي ، الأمر الذي أبرز طبقة جديدة من ذوي النفوذ والتأثير وبالتالي أصبحوا شركاء في زعامة المدينة.

2. رغم أن كثير من ضحايا التطهير العرقي في الساحل الأوسط لفلسطين قد غادروا نابلس بعد أيام أو شهور من لجوئهم القسري إليها فإن عدد اللاجئين في نابلس شكل قوة بشرية مؤثرة.

وجاء في (ملخص تنفيذي) لوحيد شحروري مدير مكتب الإحصاء في محافظة نابلس نشرته (نابلس الغد) في عددها الرابع ، كانون أول 2010:

"بلغ عدد المواطنين في منتصف عام 2010 في محافظة نابلس (340.117) ، وبلغت نسبة اللاجئين الفلسطينيين في محافظة نابلس (3، 26%) من مجموع سكان المحافظة نهاية عام 2007". وبداهة فإن معظم اللاجئين الفلسطينيين الذين اقترف المشروع الصهيوني جريمة تهجيرهم مع سبق الاصرار والترصد في العام 1948، ان معظمهم يعيشون خارج المخيمات خلافاً للخطأ الشائع لدى كثير من أهلنا أن اللاجئين يسكنون في المخيمات ، ومن الطبيعي أن ترفد هذه القوة البشرية مدينة نابلس.

3. من المعروف ان عمل كثير من أهلنا في الجزيرة العربية وليبيا والجزائر خلال الربع الثالث من القرن الماضي كان له الأثر الواضح في انتشال قطاعات واسعة من المجتمع من أنياب الفقر، وإلى درجة أدخلت أعداداً منهم في نادي التجار والصناعيين وربما الأثرياء. فضلاً عن عمل أعداد من أهلنا في الأمريكيتين.

4. فتحت مصر وسوريا والعراق أبواب جامعاتها أمام الفلسطينيين، كما كان لبعثات منظمة التحرير الفلسطينية آثارها على رفد قطاع الجامعيين الذي كان حتى منتصف القرن الماضي ضيقاً ومحدوداً ، مما أسهم في تنوع واضح في قطاعات جامعية ، كادت ان تكون مغلقة على أبناء الشرائح العليا من الطبقة الوسطى. وتأثير التعليم على مكانة الأفراد والعائلات والأمم ، أساسي ، وهذا واضح كل الوضوح في تأثيره على فروع من عائلات الحكم في نابلس التي كان لها سطوتها ونفوذها البالغ، وفي نفس الوقت فإن تأثير الجهل واضح على فروع أخرى من العائلة نفسها حيث ان التعليم حمى فروعاً من عائلات الحكم في نابلس من السقوط في مهاوي البؤس والحرمان كما تعرض غيرهم من الذين لم يعتنوا بالتعليم.

5. إن القرار التاريخي بتطوير دار المعلمين لتصبح جامعة النجاح الوطنية في العام 1977 ، ربما يكون الفعل المقاوم الأكبر والأعظم والأقوى بعد احتلال نابلس في العام 1967. وقد لعبت جامعة النجاح الوطنية، وغيرها من الجامعات الفلسطينية، دوراً كبيراً وواسعاً في المقاومة الأهلية الجماعية للشعب العربي الفلسطيني، وفي تعزيز مكانة نابلس ورفدها بقوى جديدة ، حيث أقام كثير من كوادر

الجامعة وأساتذتها في نابلس التي شهدت مسقط رأس اولادهم وربما أحفادهم مما أثرى وأغنى نابلس وزادة عافية وقوة.

وأذكر حينما كنت طالباً في كلية النجاح الوطنية من العام 1967 – 1970 انها ترجمت بالفعل لا بالقول شعارها الذي كان مرفوعا في مدخلها وهو (تقدم مستمر ونمو متواصل(.

وكم كنت أتمنى لو لم تهدر أجيال من الطلبة كثيراً من الوقت في معارك طلابية وصلت أحياناً إلى درجة الإسراف، وإن كنا نجمع على أهمية الأنشطة الطلابية غير المنهجية في الحياة ومستقبل الوطن ، إلا ان الطلبة أفرطوا في هذه الفعاليات التي كانت- في بعض الحالات- على حساب الغاية الأولى من الدراسة الجامعية وهي مخرجات تربوية وثقافية وبحثية ومعرفية ، ذات جودة عالية.

أكتب هذه السطور مع معرفتي بأنها أقل من الحد الأدنى المطلوب، وكلي أمل أن تشجع هذه السطور اساتذة الجامعة على توجيه وتشجيع طلبة الماجستير وغيرهم على البحث في ثمار الجامعة الطيبة المباركة المتنوعة جداً.

ولله در الشاعر القائل:

أمر على النجاح كأن فيها … من الاثمار دانية القطوف
فتملأ رأيتها ابتهاجاً … وتجبره على طول الوقوف

روح القلعة المحاصرة :

الأصل في الحياة الاختلاف والتنوع، وقد أراد الخالق من ذلك التعارف والتكامل والتعاون بين بني البشر لما يحقق مصالحهم المشتركة.

قال تعالى : "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير " (الحجرات : الآية 13)

والأصل أن الله أودع في الأرض من الغذاء والدواء والخيرات الأخرى ما هو كاف لجعل الحياة سلسة وآمنة للجميع. ولكن الطمع يدفع كثيراً من الناس إلى أن يقتنوا أضعاف احتياجاتهم التي توفر لهم حياة الرخاء والازدهار، فيفرض الجشعون على الآخرين الطائفية والقبلية والعنف والحروب، وفي هذا تقول الحكمة: (الحرب هي شباب يقتلون بعضهم بعضاً ولا يعرفون بعضهم بعضاً لمصلحة من يعرفون بعضهم جيدا) ، لذا يستخدم الزعماء - إلا من رحم ربك- الدين والوطن وكثير من الثنائيات المختلفة لتحقيق مصالحهم الذاتية تحت شعارات عامة كريمة جميلة، ويدفع الناس من دمائهم وحياتهم واستقرارهم ثمن هذه الصراعات التي تتبدل شعاراتها وصيغها حسب اختلاف الزمان والمكان.

ونابلس اكتوى أهلها بنار الصراع بين الزعماء تحت شعارات كثيرة، من بينها (القيس واليمن) وهي صراعات جاهلية كان الزعماء يستخدمون الناس حطباً في صراع مع ما كان يطلق عليه (صف القيس أو اليمن) ثم يغيرون (صفهم) إلى الصف الذي حاربوه لأعوام طويلة. وكانت نابلس وريفها من الذين خاضوا صراعات تحت هذا الشعار الجاهلي القبلي خلافاً لزعماء مدينة القدس الذين حرصوا على البقاء خارج دائرة الصراع، وهذا ما أكده المؤرخ عادل مناع:

”إن تحزبات القيس واليمن ظلت خارج أسوار بيت المقدس ولم تصل في أية مرحلة إلى درجة الصراعات الدموية المتكررة التي ميزت مدينة نابلس وجبلها مدة طويلة وخصوصاً في فترة التنظيمات الأولى ” . (25)
كما أن الصراع بين زعماء نابلس لم يتوقف على القيس واليمن وإنما وجد لنفسه تجسيداً في الصراع على المناصب الإدارية في الدولة العثمانية، وكان ذلك قبل 1840 حيث حكمت الدولة فلسطين حكماً مركزياً مباشراً وتخلت عن تكليف الزعماء المحليين بإدارة مناطقهم، وربما مناطق بعيدة. ونعود مرة أخرى للاستشهاد بالمؤرخ عادل مناع الذي يتحدث عن انضباط زعامة القدس خلافاً لزعامة نابلس التي لجأت إلى السلاح:
” كان التنافس بشأن المناصب المركزية في الإدارة المحلية يجري ضمن قواعد معروفة لم تصل خلال الاجيال السابقة إلى الاحتكام إلى السلاح أو إلى العداء المتأصل بين عائلات النخبة النابلسية مثلاً“.(26)
إلا أن هذا الصراع الدموي الذي وصل في بعض المناطق والأوقات إلى ما يمكن وصفه بحرب أهلية ، هذا الصراع كان يتراجع إذا أحس النابلسيون بخطر خارجي يتهددهم .
”ومما امتاز به أهل جبل نابلس في تلك الفترة، أنه رغم التنافس والخصام الواقع بين العائلات المحلية، فقد كانت هذه العائلات تتحدد ضد الخطر الخارجي الذي غزا فلسطين 1213 هـ \ 1799 م. وحصل أيضاً حينما اتحد آل جرار وآل طوقان وآل عبد الهادي لمقاومة حصار عبد الله باشا لصانور سنة 1246/ 1830م. ولكن ما أن ينتهي ذلك الخطر حتى كانت العائلات تعود إلى نزاعاتها السابقة“ . (27)
وحافظ زعماء نابلس على ميزتهم الجميلة التي منحتهم قوة وهي التمسك ب (روح القلعة المحاصرة) مرات كثيرة خلال التاريخ المعاصر، وأذكر هنا حدثين اثنين:
الأول: دور نابلس المبادر والريادي في نيسان من العام 1936 حيث أحس المواطنون بأن الخطر المحدق بالوطن أصبح أكثر جدية نتيجة تدفق الهجرة بأعداد كبيرة إلى فلسطين جراء ظهور النازية وأفكارها العنصرية ضد اليهود و غيرهم من خلال سلسلة جرائم كالتي فرضها ويفرضها الاحتلال الإسرائيلي العنصري على أجيال شعبنا وأمتنا.
فقد قفزت الهجرة اليهودية إلى فلسطين من (18959) مهاجراً خلال خمسة أعوام 1926 – 1930 إلى أكثر من ثلاثة أضعاف هذا الرقم خلال عام واحد هو العام 1935 التي وصل عدد المهاجرين فيها إلى (61854) . (28)
وكان لنابلس شرف المبادرة والريادة على أثر أحداث دموية مثل التي جرت في يافا في نيسان 1936 مما أدى إلى توتر شديد ساد البلاد:
”أول تأييد سياسي ودعم فعلي ليافا صدر عن مدينة نابلس ، وفي نهاية اليوم الأول للاضطرابات ، أي الأحد في 19 نيسان، فقد سارع رجال المدينة وشبابها من الوطنيين إلى عقد اجتماع سريع اتخذت فيه قرارات سياسية مهمة أصبحت بحكم الواقع هي المنهج السياسي والبرنامج العملي طوال فترة الاضراب ” .)29)
الثاني: التزام زعامة نابلس بروح القلعة المحاصرة في الأيام الأولى لاحتلال نابلس في 7/6 /1967. رغم أن نابلس كانت قد شهدت صراعاً بين زعمائها على أسس سياسية وعائلية وشخصية وطبقية. وتجلى ذلك بعد العدوان الإسرائيلي العنصري والمفرط في عنفه على بلدة السموع في محافظة الخليل في شهر تشرين الثاني 1966، وما تلى ذلك من احتجاجات ومظاهرات طالبت برد أقوى وردع المعتدين. وتخلل الاحتجاجات

اضرام النار في محل رئيس البلدية حمدي كنعان الكائن في المركز التجاري للمدينة، ونهب صيدلية نضال عبد القادر الصالح الذي كان والده نائباً ثم وزيراً ، ورغم الصراع المرئي وغير المرئي فإن زعماء نابلس التزموا ب (روح القلعة المحاصرة) فور احتلال المدينة وألقوا خلافاتهم الكثيرة والمتنوعة وراء ظهورهم وعملوا معاً بجهد جماعي وبروح الفريق لتبقى نابلس عربية قلباً وقالباً ، من خلال صمودها وبقاء أهلها ومقاومتهم القوية الفعالة المؤثرة والمثمرة. فقد وجد زعماء نابلس أنفسهم في ساحة واحدة رغم ما بينهم من اختلافات، وهذا حقق القوة والمكانة لنابلس فضلاً عن حماية هويتها وأهلها. مما كان له الأثر الطيب والمباشر على إعادة أهالي قلقيلية الذين طردهم الاحتلال ودمر 60% من منازلها، كما كان له الأثر الطيب أيضاً على إعادة بعض أهالي عنبتا وزيتا الشعراوية وغيرهما من التجمعات السكنية. وبداهة فقد كان لصمود نابلس وسرعة استقرار الأوضاع فيها رغم صدمة الاحتلال ومرارته ، الأثر الطيب على صمود منطقة جنين وغيرها من المناطق في الضفة الغربية. ان عقلية وأداء زعماء نابلس على ما بينهم من اختلافات كان عاملاً مركزياً من عوامل بقاء نابلس بعد (45) عاماً من الاحتلال مدينة عربية صرفة كما كانت منذ آلاف السنين.

العوامل التي أضعفت نابلس وأصابتها بالإنهاك والتهميش:

المدن وريفها لها كثير من صفات البشر، فهي تولد وتكبر وتشيخ وتقوى وتضعف وتبتسم وتتجهم ، كل ذلك بفعل عوامل ومؤثرات تمدها بالغذاء والدواء، أو تحقنها بالسموم. فلا توجد مدينة أو قطر من الأقطار بل أمة من الأمم حافظت على قوتها وهيبتها طيلة قرون، باستثناء المدن المقدسة مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة والنجف والقدس والناصرة وبيت لحم ، إلا أن هذه المدن المقدسة قد تتعرض للاحتلال أو غير ذلك من الأحداث المدمرة. وحافظت مدنية القدس على مكانتها كساحة للعيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين واليهود، إلا أن المشروع الصهيوني الذي استهدف القدس منذ منتصف القرن التاسع عشر ينفذ طيلة أكثر من قرن ونصف القرن خططاً تستهدف إلى التضيق اليومي الزاحف والمتصاعد على الوجود العربي في القدس وصولاً إلى تزييف كلي لهويتها لتصبح مدينة تطارد وتطرد غير اليهود الصهاينة ، وصولاً إلى تدمير المسجد الأقصى المبارك، كما دمّر المشروع الصهيوني مئات المساجد في الساحل والجليل، واستخدم كثير منها زرائب وحظائر ومخازن ومعارض وقاعات لهو ومقاه ومطاعم وكنس ومواخير.

كما قد لا تفقد المدن مكانتها وهيبتها لكنها قد تفقد هويتها كما جرى للقسطنطينية في العام 1453 لتصبح مركزاً للسلطان وعاصمة للخلافة بعد أن كانت لقرون طويلة عاصمة للدولة البيزنطية ومركزاً لإمبراطور الروم. وكذلك غرناطة في العام 1492 التي أصبحت مدينة للملك فرينالدو والملكة إيزابيلا المتعصبين اللذان أطلقا (محاكم التفتيش) التي هي وصمة عار في وجه أوروبا بعد أن كانت غرناطة من أجمل حواضر العرب والمسلمين التي عاش فيها العرب والأمازيغ والقوط والمسلمون واليهود والمسيحيون في نموذج راق ومتفوق من العيش المشترك في أجواء من الحرية انتجت فكراً ومعرفة وأدباً وفناً وتمدناً كانت رافداً أساسياً من روافد النهضة الأوروبية.

"إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم في الغرب لطبيعة الإسلام، فإن هناك قدراً مساوياً من الجهل بالفضل الذي تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامي. وأعتقد أن هذا الفشل ينبع من النظرة الجامدة

للتاريخ التي ورثناها، فالعالم الإسلامي في العصور الوسطى، من أسيا الصغرة إلى شواطئ الأطلس، كان عالماً ازدهر فيه الباحثون المختصون ورجال العلم، ولكن بالنظر إلى أننا نميل إلى اعتبار الإسلام عدواً للغرب ، ونظام عقيدة وثقافة ومجتمعاً غريباً. فقد جنحنا إلى تجاهل أو محو أهميته بالنسبة لتاريخنا، فقد قللنا مثلاً من أهمية 800 سنة من المجتمع والثقافة الإسلامية في اسبانيا بين القرنين الثامن والخامس عشر، لقد تم الاعتراف منذ عهد طويل بمساهمة اسبانيا في ظل الحكم الإسلامي في الحفاظ على العلوم والمعارف الكلاسيكية خلال عصور الظلام وفي صنع اللبنات الأولى للنهضة الأوروبية، ولكن اسبانيا في عهد المسلمين كانت أكثر من مخزن ، حيث احتفظت بالمعارف والعلوم الاغريقية التي استفاد منها فيما بعد العالم الغربي العصري الذي أخذ بالظهور. فإسبانيا في عهد المسلمين لم تقم فقط بجمع وحفظ المحتوى الفكري للحضارة اليونانية والرومانية بل فسرت تلك الحضارة وتوسعت بها وقدمت مساهمة هامة من جانبها في كثير من مجالات البحث الانساني في العلوم، والفلك، والرياضيات، والجبر (الكلمة نفسها عربية)، والقانون، والتاريخ، والطب، وعلم العقاقير، والبصريات، والزراعة، والهندسة المعمارية، وعلم الدين، والموسيقى، وقد ساهم ابن رشد وابن زهر على غراء نظريهما ابن سينا والرازي في الشرق، في دراسة الطب وممارسته بطرق استفادت منها أوروبا لقرون عديدة بعد ذلك" . (30)

ومن أهم العوامل التي أضعفت المدينة المشروع الصهيوني ، من خلال :

1. بتر مساحات واسعة من الساحل بما في ذلك منطقة المثلث، وهي مساحة واسعة بلغت (550 كم) وبعد أن كان لواء نابلس تاريخياً مكوناً من الساحل والجبل والغور فقد أصبح مقتصراً على الجبل والغور فقط.
2. بتر أجزاء من لواء نابلس تقع غرب نابلس، وجنوب غرب نابلس، ومساحات واسعة جداً من الغور، بعد أن كانت بلدية نابلس مالكة (للقايق) وهو يشبه الجسر المتحرك على نهر الأردن، وكانت مسؤولة عن صيانته.
3. الاستيطان الذي طوق نابلس من الغرب، والجنوب الغربي ، ومن الشرق، ومن الشمال، وكذلك من الجنوب.، بالإضافة إلى المستوطنات القريبة جدا من نابلس مثل (ألون موريه ، وفراخا ، ويتسهار) . والاستيطان يحتاج إلى سلسة أوراق علمية مستقلة لخطورته البالغة ليس على مدينة نابلس فقط بل على كل فلسطين والفلسطينيين .

وبداهة فإن الاستيطان يعني سلب الأرض وطرد المواطنين، كما جرى في مستوطنة تل أبيب التي أقيمت على شكل سقائف على الرمال الشمالية من مدينة يافا، وبدأت بالتوسع لدرجة قصفت يافا بآلاف قائف الهاون وملايين العيارات النارية لتهجير أهلها في العام 1948 ليمسخ المشروع الصهيوني يافا من عروس البحر وبلد الصحف والفنادق والحياة الثقافية والسياحية المزدهرة، إلى الحي البائس الفقير المهشم والمهمش والملحق بتل أبيب، ويلاحظ ان التركيز الاستيطاني في الضفة الغربية جرى تركيزه وتكثيفه في ثلاثة مواقع:

- حول القدس وداخلها.
- في شمال الخليل وداخلها.
- وفي غرب نابلس، وجنوب غرب نابلس .

4. إجراءات الاحتلال الكثيرة جداً التي استهدفت جعل الحياة اليومية، فضلاً عن الاقتصادية والثقافية صعبة ، تمنع نموها الطبيعي فضلاً عن التطور الضروري، وهذا ينطبق على كل مناطق الوطن، مع التركيز في الضغوطات على القدس ونابلس.
5. العسكرة: تعرضت نابلس إلى ضغوطات الاحتلال الاستثنائية بعشرات الصور، ومن بينها أيام طويلة ومتلاحقة من منع التجول، وكذلك حصار انفردت به نابلس طيلة عدة أعوام منعت دخول سيارات الركاب والبضائع . لدرجة أصبح الدخول إلى نابلس فضلاً عن الخروج منها للطلاب والمعلمين والعمال والأطباء والتجار وغيرهم من الشرائح قد أصبح يتطلب وقتاً وجهداً ومالاً اضافيين فضلاً عن الإذلال والتنكيل بسبب شبكة من الحواجز العسكرية التي تصدرت أخبارها نشرات اخبار الاذاعات المحلية في نابلس، فضلاً عن تقارير وقصص اخبارية لوكالات أنباء وصحف عالمية.

ولكن معاناة نابلس وأوجاعها لم تتوقف عند حدود بطش الاحتلال وتنكيله، ولكنها طالت الحياة التربوية والتعليمية والاقتصادية وألحقت أضراراً بجميع الأنشطة الاجتماعية والفنية والرياضية والثقافية. لكن الثمن الأقسى الذي دفعته نابلس نتيجة العسكرة تمثل بحالة الفوضى وحالة الانفلات الأمني وشيوع الزعرنة والبلطجة والخاوات وظهور نجوم العسكرة من أشقياء مجرمين ساموا المواطنين سوء العذاب، وأصبح لهم من السطوة والنفوذ الذي يذكر برموز عصابات الإجرام في مدن أمريكية اشتهرت بجرائم القتل والاختطاف وتجارة المخدرات. وبقدر ما عانت نابلس واصابها الانهاك والذبول والاعياء نتيجة الفوضى وانتهاك سيادة القانون وتهميش القضاء بقدر ما أصبح لنجوم العسكرة كثيراً من الحظوة وكثيراً من العقارات والمال الحرام، وهذا يذكر بقول الشاعر:

أتذكر إذ لحافك جلد شاه — وإذ نعلاك من جلد البعير

فسبحان الذي أعطاك ملكاً — وعلمك الجلوس على السرير

وإذا لم يتم تطبيق جدي لقانون (من أين لك هذا) فإن ما جمعه نجوم العسكرة من مال حرام سيبقى بمثابة التشجيع لهم ، و لغيرهم ، لانتهاز أية فرصة لابتزاز الناس بصورة أقسى وأشمل.

وعبر الناس عن رفضهم وتذمرهم من نجوم العسكرة بعد كل حادث يعتبر تصعيد لحالة الفوضى والانفلات، وأذكر مقتبسات من مذكرة (تجمع النقابات والاتحادات المهنية والغرفة التجارية والهيئات الأهلية في محافظة نابلس) بتاريخ: 2001\7\17 :

"يواجه شعبنا العربي الفلسطيني بصبر وشموخ ووعي وإيمان هجوماً وحشياً على أرضه لسلب مزيد من الأرض بالقوة المسلحة لمصلحة مئات من المستوطنين العنصريين، وذلك تنفيذاً لسياسة حكومة الحرب الإسرائيلية الأكثر دموية ورغبة في سفك الدماء، واتكالاً على آلة عسكرية حديثة وقدرتها على الارهاب ونشر الموت والخراب.

كما يواجه شعبنا بوعي وتصميم حصاراً خانقاً على الأطفال والنساء وكل أبناء شعبنا مما حول وطننا إلى شظايا، وفرض علينا أحكام الأسرى والرهائن والمخطوفين، وجعل من وطننا الصغير المقدس أكبر سجن في تاريخ البشرية كلها.

لذا علينا عدم اغفال الجبهة الداخلية التي تشكل قوتها وتماسكها شرط أساسياً من شروط النصر ودحر الاحتلال، وإقامة الدولة الفلسطينية ذات السيادة الفعلية على الانسان والجو والأرض وما تحتها.
شهدت المدينة قبل ايام ما يخلخل الجبهة الداخلية وما يمزق الوحدة الوطنية وذلك بقتل طفل وفتى وجرح عدة مواطنين آخرين.
ويعلم الجميع ان الحدث الدموي الذي أزهق ارواحاً بريئة أدى إلى احساس المواطنين بالصدمة وخيبة الأمل والمرارة لدرجة انتشرت ملصقات تحمل صورتين للضحيتين وعليها تساؤل مشروع عبر عما في نفس كل مواطن: "ماذا ابقيتم لشارون؟" ... أين القانون؟
ما جرى في الأسبوع الماضي كان حلقة واحدة من مسلسل طويل جداً عانى منه أهلنا نتيجة حالة انفلات وهرج وشغب وفوضى وعدم احترام القانون، وعدم قيام المسؤولين عن تنفيذ القانون بواجبهم. يدرك كل عاقل أن تنفيذ القانون بصورة مزاجية وانتقائية خلال السنوات الماضية إنما كان بمثابة تشجيع لمزيد من الاعتداءات على الابرياء، وبالتالي جعل حدث الأسبوع الماضي من باب تحصيل الحاصل، ولله در الحكيم القائل: "متى يستقيم الظل والعود أعوج"؟
لقد وجهنا عشرات المناشدات والاستنكارات والإدانة خلال السنوات الماضية إلا انه لم تتخذ أي من التدابير الجدية التي تصوب المسار تصويباً فعلياً. وبناء على خبرتنا خلال الأعوام الماضية فإننا لم نعد نؤمن بجدوى الشجب والمناشدة، وإنما نطالب بنهج جديد يعتمد على سيادة القانون، واحترام القضاء واستقلاليته، والكف عن سياسة الافراط في الامتيازات والاستثناءات، واعادة الاعتبار لقيم الامانة ونظافة اليد والخبرة والكفاءة، إن ابقاء السياسة الرخوة التي تصل درجة الميوعة والاستهتار نتيجة عدم تطبيق القانون على بعض المواطنين من شأنه المساهمة في خلخلة أسس المجتمع، وتقويض أركان الوطن، وهذا أكثر خطراً من جرائم الاحتلال في تدبير القتل لأهلنا، وتجريف أرضنا، وقطع أشجارنا المثمرة، وتدمير منازلنا، وتهديد مقدساتنا وتدنيسها.
لقد آن الأوان لتنفيذ القانون بوضع حد لانتشار الأسلحة والذخائر التي تستخدم لأغراض الاستعراض، و لغايات الألعاب النارية، ولإطلاق النار في الجنائز وحفلات الزفاف، ولترويع المواطنين وابتزازهم، وتلويث تربية ابنائنا الذين أصبحوا يمجدون الاستعراض بالسلاح لأغراض لا تسمح بها يوميات المقاومة، وابجديات الانتفاضة، ومصلحة الوطن والمواطنين".
ويعبر بيان بتوقيع (لقاء حقوق الناس) وهم عدد من المواطنين الذي لا وصاية على عقولهم ولا حجر على إرادتهم قاموا بتوزيعه علناً بتاريخ 2005/11/1، وهذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

مواطنون وكفى

جرائم القتل والابتزاز مرض خطير ينخر جسدنا، ينبغي التصدي لمهمة علاجه بطاقات المجتمع الموحد قبل فوات الأوان

مع جريمة يوم الخميس الماضي ارتفع عدد الضحايا الذين أزهقت أرواحهم، وازداد الأيتام خمسة، دفعة واحدة، وضم إلى قائمة الأرامل ضحية جديدة، وإذا لم نخضع ردود فعلنا على هذه الجرائم للنقد والمراجعة والتقييم فإن جرائم القتل وابتزاز المواطنين وإذلالهم سوف تصبح تقليداً متعارفاً عليه، ومشهداً بارزاً من ملامح الوطن والحياة اليومية للناس، مما سيفرض علينا توطين الجريمة ومكافأة المنحرفين وتشجيع غيرهم.

ومن أخطر مظاهر هذه الجرائم أنها تدفع بالمزيد من أبنائنا إلى التفكير في الخلاص الذاتي عن طريق الهجرة المؤقتة او الدائمة، هذه الهجرة التي أصبحت تستقطب فئة الشباب والمتعلمين والمؤهلين.

وتقذف هذه الجرائم، وما ينتج عنها من إحساس المواطن بالاغتراب، بأعداد متزايد من أهلنا يومياً إلى خارج الوطن، خاصة الشباب والمتعلمين والمؤهلين، محققة بذلك ما فشل الاحتلال في تحقيقه بكل دباباته وطائراته وإجراءاته القمعية وحصاره، وبالتالي فهي لا تقل جريمة عن جريمة "الترانسفير" التي حلم بها أعداء هذا العشب. وبالتالي فإن استمرار انتهاك أمن الوطن والمواطن بأيدي أبنائه يعتبر خطراً جسيماً من شأنه تضييع أقوى وأعظم إنجاز عربي في مواجهة المشروع الصهيوني، ذلك الإنجاز المتجسد في بقائنا وصمودنا واتحادنا وحماية هويتنا وذاكرتنا ومقدساتنا وقدرتنا على تنمية ميادين حياتنا على تراب الوطن.

لنرفع صوت الضمير ونتساءل بحق: هل تجاوزت ردود أفعالنا الانفعال والغضب والإدانة ورد الفعل الآني الذي يغذي الحلقة المفرغة من الفعل ورد الفعل بإحراق المنازل والمحلات وعرقلة الحياة العامة؟

لن نستطيع إنقاذ حياتنا ووطننا من العنف والفوضى والجريمة بالخطابات النارية والأعمال الانتقامية لفترة أيام أو أسابيع، وذلك لأن شرائح وخلايا ومراكز قوى تحمي مصالحها وامتيازاتها وأهواءها بالعسكرة واللاعقلانية والفساد، هذا الثالوث المدنس الذي همش طاقات الناس وفتح الباب للعنف الاجتماعي نتيجة لعسكرة المجتمع تحت مسميات "شريفة" تغطي فعلاً يجافي الشرف، وعمل على نشر اللاعقلانية بدفع الفهلويين والأميين والأنانيين إلى الصدارة وتهميش أهل المعرفة والثقافة والفكر والانتماء الوطني الصادق، وصنع من الفاسدين والمفسدين نجوماً في الفضائيات.

أيها المواطنون:

قد توهب وتمنح الأموال والأغذية والأحذية والأغطية، وربما العقارات، أما حرية المواطن وحقوق الناس فإنها تنتزع بالضغط وبالقوة وبالمجابهة (اللاعنفية) التي تعتمد على الإرادة وحسن الإدارة والوعي والحكمة والصبر والتخطيط على المدى الطويل، إن أداة التغيير الحقيقية تتمثل في تفعيل طاقات المجتمع ومشاركة أوسع قطاعاته بالعمل الجماعي المنظم وبروح الفريق. لهذا يجب أن نتحرك بلا تردد وبلا تأخير.

أيها المواطنون:

أنتم القوة الأقوى داخل الوطن طالما أنكم تمسكتم بوحدتكم، ووضعتم حداً لحالة الشرذمة وتشتيت الجهود، وعملتم معاً كجماعة قوية واعية متماسكة، موحدة وراء الهدف المقدس: حماية وجودنا ووطننا وأبنائنا وأحفادنا والأجيال القادمة، بعيداً عن التصنيفات القبلية والمذهبية والفئوية والطبقية والجهوية والعشائرية.

لتنطلق لقاءات كثيرة مثمرة، وليتحقق التواصل والتحاور والتعاون من أفق المواطنة الرحب والشامل، تحركوا فلن تستطيع أعتى وأشرس القوى الوقوف في وجهكم لأن سلاح الإيمان والوعي وسعة الأفق والوحدة أقوى من كل الأسلحة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقاء حقوق الناس

نابلس – فلسطين- الثلاثاء 2005/11/1

ماذا عن المستقبل ؟

بقاء نابلس ، وغيرها ، منوط بقدرتنا على تفعيل مقاومتنا للاحتلال الذي لم ولن يتوقف عن استهداف كل شبر في فلسطين ، والوطن العربي الكبير ، وذلك لطبيعة مشروعه العنصري الإحلالي الدموي .

وبقدر دموية الاحتلال يجب أن يكون حرصنا على عدم السقوط في مهاوي العنف الذي أسقطنا في ظلم وظلام وأوجاع حالة الانفلات والفوضى في الأعوام 2007-2001 التي كانت عاملا طاردا للشباب والمتعلمين والموهوبين للهروب من المدينة . وبقدر عنف الاحتلال يجب أن نتمسك بالمقاومة الأهلية الجماعية التي تحرر المقاومة من هوامش الاختصاص والاحتراف إلى آفاق مسؤولية جميع المواطنين ، والمقاومة الشعبية ليست (وصفة سحرية) يملكها شخص أو حزب ، وليست سريعة المفعول ، وإنما تحتاج إلى صبر وجهد ، لأنها نتاج خبرات ودراسة وتحليل ، وتسدد نقاط قوتنا على نقاط ضعف الاحتلال الذي لم تتوقف أجيال من شعبنا عن مقاومته منذ منتصف القرن التاسع عشر .

وأمامنا نموذج رائع من المقاومة الأهلية وهي انتفاضة الحجارة التي أشعلها الناس بتاريخ 9\12\1987 .

وكذلك مقاومة أهلنا في الساحل والجليل والنقب الذين حافظوا على وجودهم ولغتهم ومساجدهم وكنائسهم رغم جبروت الاحتلال وعنصريته وضغوطاته اليومية .

فكما نجحت البشرية في القضاء على أمراض الكوليرا والطاعون وشلل الأطفال فإنها قادرة على القضاء على أمراض الاحتلال والعنصرية .

وكم هو أساسي وضروري تطوير التعليم لدرجة تسهم في جسر الهوة بين مدارسنا وجامعاتنا ومراكز بحوثنا وبين نظيرتها الإسرائيلية . وهذا يتطلب تأسيس مدارس أهلية غير ربحية وغير تجارية تنتشل التعليم في نابلس ، وكل الوطن ، إلى آفاق جديدة تثمر جيلا أكثر قدرة على دحر الاحتلال وعلى العودة بمدينتهم إلى مكانتها التي تستحق .

وكذلك بتطوير المدارس الحكومية ومدارس وكالة الغوث ، من خلال تقدير المعلمين الأفضل كفاءة والأعلى أداءً ، فضلا عن إنصاف المعلمين ماديا ومعنويا ، فمسؤولية التعليم لا تقتصر على (وزارة التربية والتعليم) فقط ، بل هي مسؤولية أخلاقية ووطنية لكل الامهات والآباء وكل المواطنين المعنيين بمستقبل أفضل .
وما لم يُقبل الناس – الجيل الجديد على الأقل – على القراءة والكتب ، فكيف نحرز فعلا ثقافيا مؤثرا ؟
فالثقافة ليست عملا تكميليا ، وإنما مكون من مكونات قوة الوطن وقدرته على تحقيق الحرية والخلاص .
والثقافة لا تحمي المجتمع من بروز الأميين المقنعين والأغبياء فحسب ، بل تحميه أيضا من العسكرة واللاعقلانية والفساد .
لا يحق لنا مواصلة تجاهل حقيقة أن معظم أهالي محافظة نابلس المتعلمين والموهوبين والخبراء في عشرات الميادين ، هم خارج الوطن ، كغيرهم من أبناء الشعب العربي الفلسطيني . وإن عافية الوطن ومستقبله تفرض وضع حد لهذه العزلة من خلال الوعي والمعلومات والتواصل اليومي ، وهذا يحتاج إلى مبادرة أهلية لتأسيس هيئة تشارك فيها المؤسسات المحورية في المدينة ، دور هذه الهيئة المقترحة هو تنظيم برامج لتشجيع المواطنين المقيمين في الخارج لزيارة الوطن باستقبال دافئ وحميمي ، وتنظيم زيارات مدروسة تعرفهم على وضع مدينتهم ، وإقامة نواد صيفية لأطفالهم يشرف عليها أهل المعرفة والدراية .
كم هو جميل أن نشجع مواطنا وأسرته للعودة للوطن من خلال زيارة تستغرق أياما أو أسابيع ، ويلمس خلالها بأنه ضيف البلد ، مما يزيد ارتباطه بمدينته ووطنه ، ويشجعه للعودة الدائمة أو على الأقل استفادة المدينة بشرا ومؤسسات من خبرته وكفاءته .

الخاتمة:

هذه هي نابلس بقوتها وتميزها ونكهتها وتاريخها التليد وبدور أهلها المميز على صعيد فلسطين ووطن العرب، هذه هي نابلس التي وصفها المواطن النابلسي الصالح الذي كتب عن نابلس بصورة عميقة ودقيقة جميلة وجريئة.

" ولعل نبتة الصبير الوسام الذي ازدانت به جبال نابلس، أكثر الرموز تعبيراً عن نابلس الممتنعة السهلة والسهلة الممتنعة. فلنابلس قشرة كقشرة الصبير شائكة الملمس مرة المذاق مستعصية على الابتلاع، ولنابلس قلب كثمرة الصبير ، اللينة الملمس الطيبة المذاق والتي لها من لونها الذهبي نقاؤه وجماله.

كانت هذه جميعاً نابلس الصبيرة، تاريخاً وطبيعة وبشرا. وستبقى كذلك لأبنائها وكأنها تقول:

كم من منزل في الأرض يعشقه الفتى   وحنينه ابدا لأول منزل

لكنها أيضاً كذلك عزيزة على قلوب أناس كثيرين لم يولدوا فيها، وإنما عاشوا في رحابها ردحاً من الزمن، ثم غادروها إلى اقطار شتى، وهم مع ذلك مفتونون بها يحنون لها، وشعورهم بالانتماء إليها لا يقل عن شعور من ولدوا فيها وأمضوا حياتهم في حاراتها.

هذه نابلس الصبيرة، الصعبة المراس من الخارج والسمحة الحنون في الداخل، سيدة التسامح الرافض للإقليمية والكافر بالطائفية. نابلس البلدة الصغيرة التي عاش فيها عبر السنين والقرون: السني والارثوذكسي، البروتستانتي والكاثوليكي، الدرزي والماروني، وكذلك الأرمني واليوناني. نابلس التي يحق لها أن تفخر بأنها الوحيدة التي حافظت على أصغر وأقدم طائفة دينية في العالم، السامريين الذين لا يتجاوز عددهم بضع مئات من الأفراد، كانوا فيها قبل أن يولد المسيح بمئات السنين، وما زالوا حتى الآن يعيشون ويمارسون شعائرهم وطقوسهم. وعلى مقربة من معبدهم تجثم رفيديا الحلوة بكنائسها المتعددة ومسجدها الفريد، يسند بعضها بعضاً في محبة الأرض والتطلع نحو السماء.

كلهم بالنسبة إلى نابلس مواطنون منها ولها، وينتمون إليها، لكن نابلس العاملة العاملة الحالمة لا يرضيها أن تقصر انتماءها عليهم وحدهم، لأنها تعتز بانتمائها إلى كيان أكبر منها هو فلسطين الحبيبة، وإلى ما هو أكبر من ذلك بكثير، الوطن العربي الكبير". (31)

الفهم العميق لهوية نابلس وفقاً لرؤية الدكتور وليد قمحاوي، وأبناء جيله، هو الذي أسهم في جعل نابلس لها مكانتها وهيبتها، فحينما تكون قوياً تكون واثقاً من نفسك والقوة والثقة بالنفس تجعلان الإنسان مبتسماً مقبلاً فاتحاً ذراعيه ، ليلتقي ويتواصل ويصافح ويبادر ويحترم غيره ، لأنه ينطلق من أفق رحب واسع، وهذا ما أعطى نابلس مكانة وعطراً خاصاً بها. أما حينما يضعف الإنسان فإنه يفقد كثيراً من ثقته بنفسه وبالتالي فإنه يصبح دائم التجهم والعبوس منقبضاً غير قادر على الانفتاح، دائم التذمر، يفسر كل ما يشاهده من أحداث بنظرية المؤامرة ، ويشكك بإخلاص وانتماء كل الناجحين، يعطي الأولوية لولاءات فرعية على حساب الولاء للبلد وأهل البلد، بل ربما يلتقط من الماضي بعض الصور ليستخدمها بوعي، أو بدونه، بمثابة عراقيل تربك الحاضر وتشكك في المستقبل.

وتعاني الأمة من ذهنية مدمرة لأنها جعلت من الإثنيات في وضع تناطح وحالة صراع دائم، والأصل أن التعددية والتنوع قوة وغنى وثراء، وإن ما يميز الحضارة عن الهمجية أن الحضارة تعترف بالتعددية والتنوع وتجعل منهما حياة عزيزة كريمة. فلم يتمكن أجدادنا من انتاج الحضارة العربية الإسلامية إلا

بممارسة الحريات وتقبل الآخر واحترامه ، فأسهم في انتاج الحضارة المسلمون والمسيحيون واليهود والمجوس والصابئة ، وغيرهم، كما أسهم في انتاج الحضارة أيضاً العرب والفرس والكرد والقبط والأمازيغ ، وغيرهم.

فقد كانت نابلس في الماضي أكثر سماحة ومرونة قبل أن يجتاح وطن العرب (فقه الصحراء) وهو فكر ظلامي إقصائي لا يرفض المواطنين غير المسلمين فقط ، وإنما يرفض غيرهم من المسلمين بدعوى تفاصيل ليست من أركان الدين ولا من أصول الشرع.

ونابلس في عهدها القوي المتفوق في اطار انتمائها الفلسطيني والعربي كانت ذات نفًس وحدوي رسالة وممارسة ، قبل أن ترتكس قلة من أهلها إلى التمييز بين مواطنيها.

هوامش :

1_ أكرم الراميني (نابلس في القرن التاسع عشر- دراسة مستخلصة من سجلات المحكمة الشرعية في نابلس. دراسة بإشراف الدكتور عبد الكريم غرايبة/ كلية الآداب- الجامعة الأردنية 1977. صفحة 63،15،11.

2_ مصطفى مراد الدباغ/ بلادنا فلسطين- في الديار النابلسية/ المجلد السادس- منشورات دار الطليعة بيروت 1988 صفحة 19-18.

3_ الكزاندر شولش ، تحولات جذرية في فلسطين 1856 – 1882 دراسات حول التطور الاقتصادي والاجتماعي السياسي ، نقله عن الألمانية د. كامل جميل العسلي ، دار الهدى ، عمان ، الطبعة الثانية 1990 ، صفحة 191 .

4_ أكرم الراميني- مصدر سابق- صفحة 116.

5_ الدكتور شوكت زيد الكيلاني في شهادة له من كتاب مخطوط لزهير الدبعي بعنوان
(نابلس الاحتلال والمقاومة).

6_ كارين ارمسترونج/ الحرب المقدسة/ الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم- ترجمة سامي الكعكي- منشورات دار الكتاب العربي- بيروت -2005 صفحة 348.

7_ الدكتور وليد محمد زكي قمحاوي، طبيب وقائد سياسي مرموق نظيف اليد والموقف، له عدة كتب/ من رسالة أرسلها إلى زهير الدبعي في العام 1984.

8_ مصطفى مراد الدباغ، الجزء السادس، الديار النابلسية، منشورات دار الطليعة، بيروت، الطبعة الرابعة 1988، صفحة (63).

9_ علي خليل حمد، قامة تربوية وثقافية مرموقة، له عشرات البحوث المنشورة، عمل معلماً في المدرسة الصلاحية بنابلس ثم مفتشاً للرياضيات في مدارس محافظة نابلس من 1963 – 2000. له اسهامات في المناهج الفلسطينية في عدة مباحث مقابلة معه بتاريخ 2/7/2012.

10_ زهير الدبعي، مدخل إلى أعلام نابلس في القرن العشرين، دراسة أولية، منشورات شركة الحاج نمر التميمي، نابلس، طبع في مطبعة النصر، نابلس ، الطبعة الأولى 2000.

11_ وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره ، الجزء الثاني ، منشورات دار القلم / دمشق 2003 ، صفحة 41 .

12_ بشارة دوماني ، إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس 1700 – 1900 ، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1998، صفحة 9.

13_ أكرم الراميني (مصدر سابق) الصفحات (134، 135) .

14_ عادل مناع: تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني 1700 – 1918 (قراءة جديدة) منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية. صفحة (195) .

15_ الكزاندر شولس ، مصدر سابق ، صفحة 193 .

16_ حسام عبود الشريف: صناعة الصابون النابلسي – إصدار مكتبه بلدية نابلس العامة، مركز الوثائق والأرشيف 1999. صفحة (15) .

17_ حسام الشريف (مصدر سابق) الصفحات (63 ، 40) .

18_ بشارة دوماني، مصدر سابق صفحة (308) .

19_ الفقيه العلامة مصطفى الزرقا/ المدخل الفقهي العام " الجزء الأول" دار القلم- دمشق- الطبعة الأولى- 1998. صفحة (153).

20_ العلامة مصطفى الزرقا " مصدر سابق" صفحة (45).

21_ الدكتور رأفت محمد رائف المصري استاذ التفسير وعلوم القران / نابلس عش العلماء وموطن الاصفياء منشورات دار الفاروق – عمان – الطبعة الاولى 2012 صفحة (10) .

22_ الطيب بنونة في الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان والحاج عبد السلام بنونة ، نشر وتوزيع عبد السلام جرس ، طنجة بدون تاريخ صفحة (257) .

23_ خليل نخلة، فلسطين: وطن للبيع، ترجمة من الانجليزية عباب مرار- تصميم وتنفيذ مؤسسة ناديا للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع – رام الله – الطبعة الأولى (2011) صفحة 21 .

24_ مقابلة مع الحاج مجدي البزرة (أبو هاشم) ، نقيب الصاغة في نابلس ، بتاريخ 23\7\2012 .

25_ عادل مناع (مصدر سابق) صفحة (179) .

26_ عادل مناع (مصدر سابق) صفحة (178).

27_ الراميني (مصدر سابق) صفحة (71) .

28_ تقرير اللجنة الملكية لفلسطين/ عرض على البرلمان بأمر من جلالته في شهر تموز سنة -1937 يطلب من مكتب الطباعة والقرطاسية بالقدس، (الكتاب الأبيض) رقم (5479) . صفحة (368).

29_ بيان نويهض الحوت/ القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917 – 1948 منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية- بيروت الطبعة الأولى 1981. صفحة (333).

30_ الأمير تشارلز: في محاضرة له في مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية، مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية ، اوكسفورد بريطانيا، الطبعة الأولى، 1993.

31_ وليد قمحاوي، مصدر سابق .